

حركة الإصلاح وحديث عيسى بن هشام للأستاذ أحمد أبو بكر إبراهيم

نشرت في الرسالة الغراء كلمة في « حديث عيسى بن هشام » تناولت فيها أسلوبيه ومنزله القصصية ، ثم بدا لي رأي في هذا الكتاب آثرت أن أكتبه ، على الطلبة المتساقطين يجدون فيه قبل الامتحان ما يهديهم إلى فهم المقصود من الكتاب .

حركة الإصلاح

استطاع الغربيون في القرن التاسع عشر أن يثبتوا أقدامهم في أقطار الشرق : يسطون سلطانهم السياسي في كثير منها ويتذرعون في بعضها بالتبشير وإنشاء المدارس ويمالجون التجارة في أقطار أخرى . وقد حملوا إلى كل هذه الأقطار فيما حلوا ألوانا من الماديات والتقاليد والأخلاق وضروباً من المدنية والحضارة لم يشهدها الشرق من قبل . فانتقم الشرقيون حيال هذا الجديد الطاريء فريقين : فريقاً يتحفظ ويتصون ويرى الوقوف عند القديم الذي شوهته العصور المظلمة وأذهب بهاء الجلود الطويل ، وفريقاً آخر قد فتنته المدنية الغربية وما فيها ، فاندفع في تيارها على غير هدى وبصيرة فأصاب منها ما لا يفي ولا يفيد وأساء إلى تقاليده وأخلاقه

رأى المصلحون هذه الحال فلم يعجبهم هذا الجود الزرى ولم يرقهم هذا الاندفاع المقيت فقاموا بحركة للإصلاح ، قوامها التجديد في حدود المقول الذي لا يتنافى مع روح الدين ومبادئه وأصوله وغاياته ، والوقوف في وجه الفوضى التي أوشكت أن تقضى على كل قديم جميل . وكان أول مجاهر بهذا الإصلاح زعيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى ، فقد دعا إلى مبادئه في بلاده والهند والحجاز وتركيا ، ووصل إلى مصر عام ١٨٧١ مبيتاً منهاجه الإصلاحى فلاقى من المفكرين قبولاً ، ورأوا فيه المنقذ للشرق والمهادى إلى طريق الصواب

ورأوا في آرائه ثورة على العلماء الجامدين الذين أساءوا إلى الدين بمحودهم حتى جملوه في معزل عن الحياة العامة ، وثورة سياسية تدعو إلى إشراك الشعب في الحكم إشراكاً يظهر أثره ، وثورة أخرى تنظم نواحي الأخلاق والاجتماع والأدب ؛ فقد دعا إلى الاقتداء بالسلف في أخلاقهم ومبادئهم ، وأراد من الأدب العربى أن يكون أداة لنشر الأفكار والعلوم لا ألقاظاً جوفاء تقوم على الزخارف اللفظية والحلى الكلامية ولا تحمل من المعاني قليلاً ولا كثيراً . ولم تلبث هذه المبادئ السامية أن وجدت من المصريين أعواناً عرفوا قدرها وأدأعوا بها : فكان منهم المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المصلح الدينى الكبير . وكان منهم من جاهر بالدعوة السياسية في كتابته وشمره وطلب بالدستور ، وتألقت جماعات لبثت الكتب القديمة ، وكان من هذه الجماعات جماعة تألفت سنة ١٨٩٨ ، وكان من أعضائها حسن باشا عاصم ، وأحمد بك تيمور ، وعلى بك بهجت ، وغيرهم . وإنما فعلوا ذلك ليُظلموا المتأدين على طراز قوى من الأدب يفتنهم عن تليب النظر في الضعيف الساقط من النشور والمنظوم . وقام دعاة الإصلاح الاجتماعى ممن تقيفوا مبادئ جمال الدين يملنون آراءهم للناس في صدق ويقين

حديث عيسى بن هشام

كان لرجال الإصلاح الدينى كالشيخ محمد عبده ومن سار على طريقة آراء نافذة في الإصلاح الاجتماعى ظهرت في كتاباتهم ودعوتهم ، إلا أن رسالتهم الدينية شغلهم بعض الشيء عن التفرغ لنواحي المجتمع فنهض بها غيرهم نهضة قوية وكان منهم محمد المويلحى في كتابه « حديث عيسى بن هشام »

ولم يقتصر المويلحى على المجتمع والأخلاق بل تناول أموراً أخرى تتصل بهما وتؤثر فيهما تأثيراً كبيراً أو قليلاً وهى السياسة والدين والأدب ولكنه لم يعم في هذه النواحي لأنه يعلم أن لها رجالاً يقومون بها .

وبعد فهل سرى روح جمال الدين إلى المويلحى وهل أثر فيه التأثير الذى جعله يتجه هذا الاتجاه ؟

لهم إلا والماشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها ، وهو وإن كان مقبولاً عند الثريين مسموحاً به لموافقة العادة عندهم ، ولكونه شيئاً لا عيب فيه يجهر به فتيانهم وفتياتهم بل هو أصل من أصول النزاج ينهم قصت به رطوبة الإقليم وطبيعة الحال إلى ما يهيج الشعور ويشير نائرة الخيال لكنه غير مقبول عند الشرقيين ولا مسموح به في عاداتهم ... »

هذه هي الأسباب التي يعمد إليها المويلحي فساد المجتمع والأخلاق وهي كما ترى ما أشار إليه جمال الدين وتردد على السنة المصلحين . ولم يبق بعد هذا إلا أن نشير إلى الإصلاح الأدبي والديني في كتاب « حديث عيسى بن هشام » ليتضح للقارىء الارتباط المتين بين دعوة جمال الدين ودعوة المويلحي .

لم يكن المويلحي من علماء الدين وإنما كان من الأدباء المصلحين الذين وجهوا أكبر جهودهم إلى المجتمع والأخلاق ، فهو إذا كتب في الدين كتب ليحارب الجود دون تعمق في التفصيلات ؛ وهو إذا انتقد العلماء أراد من وراء هذا النقد توجيههم إلى الاشتراك في الحياة العامة ليتحقق صلاح المجتمع والأخلاق .

فهو يرى في كتابه طوائف من الناس بالاستهتار وضعف العقيدة فيقول على لسان حفيد الباشا « لست أسمع لهذا الكذب والخرف وليس لي اليوم من جند ولا والد ، ولا أنا ممن يصدق حديث المبعث في الآخرة فكيف يرجوع الموتي في الدنيا »

أما الخرافات التي علقت بالأذهان فهو يلجمها إلماً في سياق حديثه عن كبراء العصر الماضي . وقد جلس أحد العلماء ينسب إلى السيد عبد القادر الكيلاني إحياء الفريق كما ينسب إليه أن الله قد وعده بأن من ينظر إليه يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً ، وإذا نظر إلى التراب يكون ذهباً إلى آخر ما ورد في هذه القصة .

ونحن نعلم علم اليقين أن المويلحي قصد بهذه القصة إظهار ما ران على الدين وأصوله ومبادئه من خرافات يجب الإقلاع عنها والبعد عن التعلق بأمثالها لأنها تبعد عن روح الدين ورسائله

وهو يرجو من الدين أن يصلح لكل حياة وأن يكون دافعاً إلى إصلاح المجتمع وعاملاً من عوامل الخير والسيادة الإنسانية ، فإن اقتصر الدين على النسك والعبادة ، وانكسر الناس على أعمالهم

لقد كان جمال الدين مدرسة تخرج فيها كل من شهد الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وكان محمد المويلحي من هؤلاء ولعلك تستطيع أن تدرك هذا الارتباط المتين من رسالة « جمال الدين » في صدر « حديث عيسى بن هشام » فقد وافق ما بهذا الكتاب مبادئ جمال الدين التي يدعو إليها وأصاب كتابات المويلحي هوى في نفسه فقرظه هذا التقرير البليغ . ونحن إذا تلمسنا هذا الارتباط في كتابة المويلحي وجدناه بيناً ظاهراً ، فهو يرى أن فساد المجتمع راجع إلى تقليد المصريين للأجانب تقليداً أعمى وتهالكهم على التظاهر بمظاهر الغرب ، ويقول إنهم قد أساءوا إلى أخلاقهم وعاداتهم ونظمهم حين لجئوا إلى هذا التقليد :

١ - ذلك لأنهم استنوا بهذا التقليد سُنناً جديدة ضارة لم تكن معروفة من قبل في مصر كالانتحار .

٢ - وهم كذلك أساءوا التقليد فنقلوا عن الغرب مفاصد قد قيدها الغرب بقيود فجعلوها هم مباحة لا قيد فيها ولا شرط كالقمار والبغاء والخمر .

٣ - وهم تعلقوا بالمظاهر الكاذبة في التقليد ، وتركوا المهم من مدنية الثريين . وفي هذا يقول : « فأصبحوا في الضلال يعمهون وفي البهتان يتسكمون ، واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية »

٤ - ولقد كان هذا التقليد سبباً في تركهم العادات الكريمة المتوارثة عن الأجداد والأسلاف فهو يقول : « ونبتذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهيراً ، فأنهدم الأساس ووهت الأركان وانقضت البنيان وتقطعت بهم الأسباب فأصبحوا في الضلال يعمهون وفي البهتان يتسكمون »

٥ - على أن هذا النقل كان مغالفاً لطبيعة البيئات والأجناس فإن ما يصلح للغرب قد لا يصلح للشرق ، وما يراه الثريون أمراً مألوفاً يراه نحن أمراً مفكراً لتفاليدها وأمرجتنا وما توارثناه عن السلف من عادات وآداب ، والمويلحي يضرب لذلك مثلاً التمثيل المنقول عن الغرب بزمته وأشخاصه وأصوله : « ولن تخلو قصة من قصصهم التي يمتثلونها عن ذكر المشق والغرام وما من رواية

خطبة وقصيدة ليبيين نوعاً من الأدب التافه شعره ونثره . وقد عقب عليهما ساخراً بقوله : « ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب »

وهذه الدعوة الأدبية هي دعوة جمال الدين ومن سار على نهجه من بعده . وقد استطاع المويلحي بلباقته الأدبية القصصية أن يضمن كتابه هذه النواحي الإصلاحية في أسلوب شائق جذاب يستهوى الناس . ولم ينس أن يذكر ما كان لدعاة الإصلاح وزعماء النهضة من فضل عليه فهو يقول في إهداء كتابه : « وأهديه إلى أرواح المرحومين الأدب الوالد ، والحكيم جمال الدين ، والعالم محمد عبده ، واللغوي الشنقيطي ، والشاعر البارودي ... أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين ناديت تأديهم وأخذت عنهم »

(القيوم)

أحمد أبو بكر إبراهيم

إدارة البلديات — تنظيم

تطرح بلدية المحلة الكبرى في
المزايدة العلنية العامة بيع براميل
أسفلت فارغة وصاج قديم وحديد
وصفيح خردة وكهنة وخلافها وتحدد
الساعة العاشرة من صباح ١٣ مارس
١٩٤٣ موعداً للمزايدة . فعلى راغبى
الدخول في هذه المزايدة الحضور في
المكان والزمان المذكورين ٢٤٩

التبذية التي يقومون بها غافلين عن فعل الخير وتقديم المعونة للبشر كان آلياً لا خبر فيه لصالح الناس . وفي الكتاب ما يشير إلى ذلك على لسان الباشا فهو يقول : « وقد غرتى في دنياى من مثل هذا الشيخ ما يهون على ارتكاب الخزيات وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكائاً على نهار أصومه وليل أقومه ... فتمت عن عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف »

فلعلك تدرك بعد هذا أن المويلحي له دعوة دينية قوامها التمشي مع المدنية والبعد عن الخرافات وخدمة الإنسانية . وهذه الدعوة هي غاية رجال الدين ، وهي ما قام به الشيخ محمد عبده

أما الأدب فإن المويلحي يرى أنه لا يرتقى ولا تسمو عبارته ولا تجود معانيه إلا إذا اتصل الأدباء بالتراث العربى القديم يقبلون في عباراته البليغة وأساليبه الرصينة . ويرى أنه لا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بنشر الكتب القديمة وطبعها حتى تكون في متناول الناس جميعاً ، وبموجب من بقاء الكتب المخطوطة في المكتبة العامة بعيدة عن أيدي الناس قائلاً إن هذا يعرضها للتلف ويفوت الغرض منها ويجعل النفع بها محدوداً ، وهو يشتط في هذا الرأي فيقول : « أى نفع وفائدة للأمة المصرية الإسلامية في أن تنشر بين يديها رمم الفراعنة في الأنتكخانة ، وتقبر أرواح العلماء والحكماء في الكتبخانة » . وهذا الكلام وإن أجراه المويلحي على لسان أحد الأشخاص إلا أن المتبع لكلامه في هذا الصدد يعلم إيمانه بهذا الكلام

ولم ينس المويلحي الثقافة الحديثة وأثرها في الأدب فهو يقول في عزلة الباشا عن الناس : « وعكفت مع الباشا في عزلةتنا أذهب به كل مذهب ، وأنتقل به من مطلب إلى مطلب في مطالعة الأشعار والكتب من تاريخ وأدب ومن حكم متينة قوية وشتى علوم حديثة وقديمة »

وغاية المويلحي من كل هذا أن يتصل الأدباء بالأدب العربى القديم لأنه منبع لكل بارع وفاخر من الأساليب ، وأن ينالوا من الثقافة الحديثة حظاً كبيراً لأنهم في حاجة إلى هذه الثقافة التي تمدهم بالأفكار والمعاني ؛ ثم هو لا يمجبه رصف الألفاظ الجوفاء التي لا تحمل معنى قياً . ولذلك ساق في حقله العرس